

وأسرارها وسفه لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبها فتركوها وأنه قال لهم أن الولي
 آله باطل والله آله حق فأنكروا الإلهية حقها وباطنها.
 يتبع.

دمشق:

صلاح الدين القاسمي.

أخبار العناء بأخبار الحكماء

من الكتب الجيدة في التراجم هذا الكتاب لنوزير جمال الدين أبي الحسن علي القفطي من
 أهل القرن السابع طبع أولاً في ليسيك وأعيد طبعه في القاهرة فتداولته الأيدي وعم
 الانتفاع منه كما عم من قبل كتاب عيون الآن بآء في طبقات الأطباء لموفق الدين أبي
 العباس أحمد المعروف بابن أبي أصيعة من أصل ذلك القرن إلا أن كتاب أخبار الحكماء
 مال فيه صاحبه إلى الاختصار حتى جاء في نحو نصف طبقات الأطباء وإن كان زاد عليه
 بعض التراجم لأن المترجمين في كلا السفرين النيسين تجاوزوا الأربعمائة.

سرد ابن القفطي أسماء مترجميه على حروف المعجم بحسب تقادم عهدهم بخلاف ابن أبي
 أصيعة الذي أتى بالتراجم بحسب الأقطار ثم بحسب سني ولادتهم ولم يشع الأول الكلام
 إلا في بعض الأشخاص وربما أوجز في الأحيان إيجازاً لا يكاد يقع فيه ابن أبي أصيعة إلا
 نادراً والغالب أن هذا وقف في جهنة ما وقف عليه من الكتب كتاب القفطي فاستعان به
 وزاد عليه لأن هذا توفي سنة ٦٤٦ في حنب وابن أبي أصيعة توفي سنة ٦٦٨ في صرخد
 من بلاد الشام ولا يعقل أن يكون رجلاً من متعاصرين ولا يطعن أحدهما على ما يكتبه

الأخر فقد نرى بعض التراجم في بالحرف الواحد في كلا الكتابين ولعل المصادر التي أخذ عنها المؤلفان كانت واحدة فجاءت بعض تراجم مترجميهم بعبارة واحدة.

ومع أن ابن القفطي اشتهر بأنه من كبار غلاة الكتب وهو ذو ثروة واسعة وفي منصب الوزارة نرى ابن أبي أصيبعة من طبقة الأطباء في عهده يهدي كتابه إلى أحد وزراء دمشق ومع هذا تقرأ فيه سعة المادة المدهشة ولكن المتأخر قد يفوق المتقدم ولا عبرة بتقدم الميلاد كما لا عبرة باختلاف البلاد إذا كان الترقى فيها عاماً.

وهنا لا بأس بإيراد طرف من ترجمة صاحب أخبار الحكماء زيادة في البيان فهو عني بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى وزير حنب القاضي الأكرم الوزير جمال الدين أبو الحسن بن القفطي أحد الكتاب المشهورين وكان أبوه القاضي الشرف كاتباً أيضاً ولد بقفط من الصعيد الأعنى بالديار المصرية وأقام بحنب وكان يقوم بعنوم من اللغة والفقه والحديث وعنوم القرآن والأصول والمنطق والنحو والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ولد سنة ستين وخمسة وتسعين سنة وأربعين وستمائة وكان صدراً محتشماً كامل السؤدد وجمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها

ولم يكن له دار ولا زوجة وأوصى بكتبه لناصر صاحب حنب وكانت تساوي خمسين ألف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب وهو أخو المؤيد بن القفطي ومن شعره:

ضدان عندي قصر اهمني ... وجه لحي ولسان وقاح

إن رمت أمراً خائني ذو الحيا ... ومقول يطعني في النجاج

فأنتني من حيرة منها ... لي بحنب ماض ومالي جناح

شبه جباناً فرّ من معرك ... خوفاً وفي يمينه غضب الكفاح

ولده من التصانيف كتاب الضاد والظاء وهو ما اشبهه في النطق واختلف في المعنى الخط. كتاب الدر الثمين في أخبار الحسين. كتاب من ألوت الأيام عنه فرفته ثم ألوت عنه فوضعته. كتاب أخبار المصنفين وما صفوه. كتب أخبار النحويين كبير كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين ست مجلدات كتاب أخبار المغرب كتاب تاريخ اليمن كتاب الخني في استيعاب وجوه كلال. كتاب إصلاح ختل صحاح الجوهري كتاب كلام عني الموطأ لم يتم كتاب الكلام عني صحيح البخاري لم يتم تاريخ محمود بن سبكتين وبقية كتاب تاريخ السنجوقية تاب الاستئناس في أخبار آل مرداس كتاب الرد عني النصارى وذكر مجامعهم كتاب مشيخة تاج الدين الكندي كتاب لهزة الخاطر ونزهة الناظر في إحسان من ظهور الكتب اهـ.

وعنى ما توخى ابن الففطي من الاختصار في التراجم تسقط فيه على أمور كثيرة وفوائد غزيرة خصوصاً وإن من الرجال من ترجمهم هو وحده ومنهم من تفرد ابن أبي أصيبعة ومنهم وهم الأكثر من اشتركا معاً في ترجمتها مثل الذي تفننه عن الخطيب أمين الدولة أبو الحسن علي الأباقي العثماني الأموي الففطي صاحب القاضي الأكرم قال: وكان من أجل رأيت نباهة وفضلاً وبلاغة ومشاركة قال أدركت جلة المشايخ من إجلاء بلادنا وهم مجموعون عني أن الذي أردم أراضي أكثر قرى مصر وأسس الجسورة المتوصل بها من قرية إلى قرية في زمن النيل هو أرشيدس فعل ذلك لبعض منوكها وسبه أن أكثر القرى بمصر كان أهلها إذا جاء النيل تركوها وصعدوا إلى الجبال المقابلة لها فأقاموا بها إلى أن يذهب النيل خوفاً من الغرق وإذا أخذ النيل في النقص نزل كل قوم إلى أراضيهم

وشرعوا في الزرع فكان ما تطامن من الأرض بمنعهم ما انحبس فيه من الماء عن الوصول إلى ما علا فلا يوصل إليه إلا بعد جفافه فلا يمكن زرعه فيذهب بذلك فعل كثير ولما عنم أرشيدس بذلك في زمنه قاس أراضي أكثر القرى عنى اعنى ما يكون من النيل وأردم ردمواً وبنى عليها القرى وعمل الجسورة ما بين القرى وفي أواسط الجسورة قناطر ينفذ الماء منها من أرض قرية إلى أخرى فزرع كل واحد منهم الزرع في وقته من غير فوات ووقف من كل ضيعة أرضاً معينة يصرف مغلها في كل سنة إلى إصلاح هذه الجسورة فهي إلى الآن معلومة ولها ديوان مفرد بمصر يعرف بديوان مدن الجسورة وعنيها احتراز كثير وعناية كثيرة وأعرف وأنا طفل وقد أضفيت هذه الجهة بالأعمال الشرقية من جوف مصر إلى والدي رحمه الله وله نواب وضمان ومشدون كان العمل فيها أتعب من جمع الأعمال امـ.

ومثل قوله في ترجمة جالينوس الحكيم بأن أنطونيوس قيصر منك اثني عشرة سنة وبنى مدينة إينوبوليس وهي مدينة بعليك أي أصلحها وقال في ترجمة سنان بن ثابت بن قرة الحرافي ما نصه: وكانت منزلة سنان كبيرة عند الأمراء والوزراء فمن ذلك أن الوزير عني بن عيسى بن الجراح وقع إليه في سنة كثرت فيها الأمراض والأوباء توقيعاً نمخته: ففكرت مد الله في عمرك في امر من في الجبوس وأنهم لا يخنون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقون من التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم فينبغي أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم ويخنون معهم الأدوية الأشرية وما يحتاجون إليه من المزورات وتقدموا إليهم بأن يدخلوا سائر الجبوس يعالجوا من فيها من المرضى ويروحوا عنهم فيما يصفونه لهم إن

شاء الله تعالى. ففعل سنان ذلك ثم وقع إليه توقيعاً آخر: فكرت فيمن بالسواد من أهله وأنه لا يخ لو من أن يكون فيه مرضى ولا يشرف فتطب عليهم لخنو السواد من الأطباء فتقدم مد اله في عمرك بإنفاذ متطبين وحرارة من الأدوية والأشربة يطوفون في السواد ويقسمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ويعالجون فيه ثم ينقلون إلى غيره. ففعل سنان ذلك وانتهى أصحابه إلى سورا والغالب على أهلها اليهود فكتب سنان إلى الوزير علي بن عيسى يعرفه ورود كتب أصحابه عليه من السواد بأن أكثر من بسورا وهر منك يهود وأهم استأذنوا في المقام عليهم وعلاجهم أو الانصراف عنهم إلى غيرهم وأنه لا يعلم بما يجيهم به إذا كان لا يعرف رأيه في أهل الذمة وعليه أن الرسم في بينارستان الحضرة قد جرى للنسلي والذمي. فوقع الوزير توقيعاً نسخته: فهتت ما كتبت به أكرمك الله وليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهايم صواب ولكن الذي يجب تقديمه والعنل به معالجة الناس قبل البهايم والمسلمين قبل أهل الذمة فإذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف في الطبقة التي بعدهم فاعمل أكرمك الله على ذلك واكتب إلى أصحابك به ووصي بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية وإن لم يجدوا بدرجة توقفوا عن المسير حتى يصح لهم الطريق ويصلح السبل فإنهم إذا فعلوا هذا وفقوا إن شاء الله تعالى اهـ.

وفي هذه الرسائل الثلاث نموذج مهم من الكتابة الرسمية في أوائل مدة العباسيين ودليل على ما بنفته الحضارة في عهدهم أيام كان الطب في جملة ما يعنى به حتى أن سنان ابن ثابت أحصى الأطباء في بغداد ولم يرخص لأحدهم أن يطيب إلا إذا أخذ شهادة بكفاءته

وكذلك فعلوا مع الصيادلة حتى لا تؤتى الأمة من جهة الطب أهداها كما حاذر الخلفاء أن لا تؤتى من قبل أديانها.

وكما تجد المحاسن ماثلة في أخبار الحكماء ترى المساوي كذلك كالتى ذكره في ترجمة عبد السلام بن عبد القادر الجيلي المعروف بالركن قال: كان عبد السلام هذا قد قرأ عنوم الأوائل وأجادها واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة وله تقدم في الدولة الإمامية الناصرية وحصل له بتقدمه حسد أرباب الشر فثلبه أحدهم بأنه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفسفة في قواعد هذا الشأن فأوقعت الحفظلة عليه وعلى كتبه فوجد فيها الكثير من عنوم القوم وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع بغداد يعرف بالرحبة وأن تحرق بحضور الجمع الجم منها ففعل ذلك وأحضر لها عيد الله النبي البكري المعروف بابن المرستانية وجعل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم وذكر الركن عبد السلام هذا بشر وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم تصفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار اهـ.

وثننا نفيه من الفقرات في ترجمة موسى بن ميسون الإسرائيلي الأندلسي لما نادى عيد المؤمن بن عني الكومي البربري المستولي على المغرب البلاد التي مذكها بإخراج النصارى منها وقدر لهم مدة وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما لفلسين وعليه ما عليهم وبقي على رأي أهل ملته فأما أن يخرج قبل الأجل الذي أجله وأما أن يكون بعد الأجل في حكم السلطان مستهتك النفس والمال.

ومما ذكره وهو يدل على اتساع ثروة العرب في ترجمة بني وصى بن شاكر محمد وأحمد
والحسن من أن محمداً صار بالعلم من وجوه القواد إلى أن غذب الأتراك على الدولة
وذهبت دولة أهل خراسان وانتقلت إلى العراق فعنت مزلتد واتسع حاله إلى أن كان
مدخوله في كل سنة بالحضرة وفارس ودمشق ونحوها نحو أربعين ألف دينار ومدخول
أحمد أخيه نحو سبعين ألف دينار. فتأمل مبلغ هذه الثروة.

ومما نقتبسه من هذا الكتاب أمودجاً على درجة الحضارة في القرن الخامس ما نقله من
كتاب كتبه المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم الطيب البغدادي المعروف بابن بطلان
من نصارى كرخ بغداد إلى الرئيس هلال بن الحسن بن إبراهيم ونصه: بسم الله الرحمن
الرحيم. إنا لما اعتقدنا من خدمة سيدنا السيد الأجل أطال الله بقاءه وكبت أعداءه دانياً
وقاصياً وافترضته من طاعته مقيماً وطاعناً وأضررت عند دواعي حضرته العالية وقد
ودعت منها الفضل والسؤدد والجد والفخر واخذت أن أتقرب إليها وأجدد ذكرى عندها
بالمطالعة مما استطرفه من أخبار البلاد التي أطرقتها واستغربه من غرائب الأصقاع التي
أسكنها خدمة للكتاب الذي هو تاريخ الخامس والمفاخر وديوان المعاني والمآثر ليودع أدام
الله تمكينه منها ما يراه ويلحق ما يستوقفه ويرضاه وعلى ذكره فما رأيت أحداً بمصر
وهذه الأعمال أكثر من الراغب فيه وكل رئيس في هذه الديار متشوق إليه متشوف
ولوصوله مترتب متوقع ولو وصلت منه نسخة لبغ الجانب لها أميته في ربحها ونفعها
وإلى الله تعالى أرغب في نشر فضيلته الباهرة ومحاسنه الزاهرة بمجوده. وكنت خرجت من
بغداد وبدأت بنقاء مشايخ البلاد وخواصها واستملاء ما عندهم من آثارها وعجائبها
فذكرني أخبار مستطفرة وعجائب غريبة واقطاع من الشعر رائقة ولصيق الوقت

وسرعة الرسول أضربت عن أكثره واقتصرت على أقله وكتت خرجت على اسم الله تعالى وبركته مستهل شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة مصعداً في هر عيسى على الأنبار ووصلت إلى الرحبة بعد تسعة عشرة رحلة وهي مدينة طيبة وفيها من أنواع الفواكه ما لا يحصى وبها تسعة عشر نوعاً من الأعناب وهي متوسطة بين الأنبار وحنب وتكريت والموصل وسنجار والجزيرة وبين قصر الرصافة مسيرة أربعة أيام ورحلنا من الرصافة إلى حنب في أربع رحلات وهي بند مسور بالحجر البيض فيها ستة أبواب وفي جانب السور قنعة أعلاها مسجد وكنستان وفي إحداهما مكان المذبح الذي كان يقرب عليه إبراهيم عليه السلام وفي أسفل القنعة مغارة كان يخبأ فيها غنمه وإذا حنبا أضاف بلنبا الناس فكانوا يقولون حنب أم لا ويسأل بعضهم بعضاً عن ذلك فسميت حنب وفي البند جامع وست بيع وبيمارستان صغير والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية وشرب أهل البند من صهاريج وعلى بابها هر يعرف بقويق يمد في الشتاء وينضب في الصيف وفي وسط البند عنوة صاحبة البحرى وهو قليل الفاكهة والبقول والنبذ إلا ما يأتيه من الروم (الأناضول) وما بحنب موضع خراب ومنه خرجنا من حنب طالين إنطاكية وبين حنب وبينها يوم وليلة فتنا في بندة للروم تعرف بعم فيها عين جارية يصاد منها السمك ويدور عليها رحى وفيها من الخنازير والنساء والعواهر والزنا والخمور أمر عظيم وفيها أربع كتانس وجامع يؤذن فيه سراً والمسافة التي بين حنب وإنطاكية لأرض ما فيها خراب أصلاً إلا أرض زرع لفحطة والشعر بحنب شجر الزيتون وقراها مصنعة ورياضها مزهرة مياها متفجرة وإنطاكية بند عظيم ذو سور وفيصل ولسوره ثلثائة وستون برجاً يطوف عليها بنوبة أربعة آلاف حارس ينفذون من القسطنطينية من حضرة

الملك فيضمنون حراسة البند سنة ويستبدل بهم في الثانية وشكل البند كصف دائرة
قطرها يتصل بجبل والصور يصعد من الجبل إلى قلته ويستتم دائرة وفي رأس الجبل داخل
الصور قلعة تبين لبعدها من البند صغيرة وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطع عليها
إلا في الساعة الثانية ولنسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب وفي وسطها قلعة القسياني
وكانت دار قسيان الملك الذي أحيا ولده بطرس رئيس الخواريين وهو هيكل طوله مائة
خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على أساطين ودائر الهيكل أروقة يجنس فيها القضاة
لنحكومة ومعنى النحو والنغة وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان الساعات يعمل
ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا وفي أعلاه خمس طبقات في
الخامسة منها حمامات وبساتين ومقاصير حسنة وتجر مكنها المياه وهناك من الكنائس ما لا
يحد كثرة كلها معمولة بالفص المذهب والزجاج المنون والبلاط الجزع وفي البند
بيمارستان يراعي البطريرك المرضى فله بنفسه وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في
مدينة من الندادة والطيبة فإن وقودها من الأس وماؤها سيج وفي ظاهر البند نهر يعرف
بالقنوب يأخذ من الجنوب إلى الشمال وهو مثل نهر عيسى وخارج البند دير سمعان وهو
مثل نصف دار الخليفة يضاف فيها المجتازون يقال أن دخنه في السنة أربعمائة ألف دينار
ومنه يصعد إلى جبل النكام وفي هذا الجبل من الديارات والصوامع والبساتين والمياه
المشجرة والأهوار الجارية والزهاد والسياح وضرب النواقيس في السحار وألحان السنوات
ما يتصور معه الإنسان أنه في الجنة. وفي أنطاكية شيخ يعرف بأبي نصر بن العطار قاضي
القضاة فيها له يد في العنوم منيح الحديث والإفهام وخرجت من إنطاكية إلى اللاذقية
وهي مدينة يونانية لها ميناء ومنعب وميدان لتخيل مدور وبها بيت كان للأصنام وهو

اليوم كيمة وكان في أول الإسلام مسجداً وهي راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصنون فيه وأذان في أوقات الصنوات الخمس وعادة الروم إذا سمعوا الأذان أن يضربوا الناقوس وقاضي المسلمين الذي بها من الروم. ومن عجائب هذا البند أن الختسب يجمع القحباب والغرباء المؤثرين لنفساد من الروم في حنقة وينادي على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة فيهن لينتها تنكث ويؤخذن إلى الفنادق التي هي الخانات لكنى الغرباء بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً هو خاتم المطران حجة بيدهما من تعب الوالي لها فإنه متى وجد خاطياً مع خاطية يغير ختم المطران ألزمه جنابة. وفي البند من الحياء والزهاد في الصوامع والجهال كل فاضل يضيق الوقت عن ذكر أحوالهم والألفاظ الصادرة عن عفاء عقولهم وأذهانهم اهـ.

وبعد فإن تاريخ القفطي من الكتب التي أجاد فيها مصنفها حرياً بأن يستفيد منه كل متأدب ومتعلم ويرجع إليه كل عالم ومؤرخ سلس العبارة جميل المآتى ينقل الأمور على علاقتها في الأكثر بدون تحييص لها أو إبداء رأي فيها وابن أبي أصيبعة يفوقه في رد كل قول إلى قائده وضبط الأعلام والتدقيق في التواريخ وأخبار الرجال وذكر شذور من شعرهم ونثرهم والكتابات كفرسي رهان أو كالسلسلة المفرغة لا تدري أين طرفاها.

الصحف والنجاح

لنجاح في الأعمال أسباب كثيرة منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي إذا احتل أحدهما تعذر النهوض بالشق الآخر. وإنشاء الجرائد والمجلات لا يخرج عن هذا الحد المقرر وهل في الأرض عمل لا يحتاج إلى عنم وتجارب ومال واستعداد. ولطالما رأينا مصر في الثلاثين سنة الأخيرة والشام في عهدهما الدستوري الحديد وغيرهما من الأمطار والأقطار التي